

جان بول سارتر ومواقفه

الادراك والخيال

ليس بين كتاب فرنسا اليوم من بلغت شهرته مبلغ شهرة سارتر . وليس هناك من حديث يدور عن كتاب اليوم في الصالونات والأندية العامة أو الخاصة بل في مركبات سكك الحديد إلا تناول ذكر سارتر ؛ فيقول أحدهم : ألم تقرا كتاب سارتر الأخير؟ وما رأيك في مقال « الفيجارو » عنه ؟ ويقول آخر في حيرة : آه ! لم تتح لي قراءة سارتر إذ عند ما سمعت به ورغبت في شراء مؤلفاته وجدتها كلها قد نفذت ، وهل من يعيرني نسخة من « الخائط » ؟ أو « الوجود والعدم » ؟ أو « الذباب » ؟ .

من هو سارتر ؟ وما سر هذه الضجة حوله ؟ يجب ألا يخيل إلينا ان قراءه يعدونه سيداً من سادة الأدب ، ورجلهم ، معلماً لذوقهم وانموذجاً لفنهم ، أو لأسلوبهم ، أو لما يحبون أن يكون عليه الأسلوب الفرنسي . هذا كان ولعله لا يزال شأن أندريه جيد و پول فاليري .

ولا يدعى سارتر لنفسه شيئاً من هذا ، ونجده يقرر أن أحداً من الناس لا يستطيع أن يسمى نفسه سيداً أو معلماً في الأدب ، ويسخر من هؤلاء الذين يبحثون عن كاتب هو السيد أو المعلم ، وعن كتاب هو الكتاب المثالي أو القاعدة ، ويرى أن مثل هذه الدعوى لا تصح إلا بعد أن يكون قد مر قرن أو قرون على الكتاب وكتبهم .

وليس هناك رجل أبعد من سارتر عن الجماهير . وهو يعتقد قبل كل شيء أنه كمفكر يجب أن يعيش وحده منفرداً منعزلاً : المفكر يفكر في طبيعته كفرد وفي مصيره وهو يعيش ويموت وحيداً . ولكن سارتر رجل النقائض ،

إذ زاه في الظاهر يغشى الأندية بل يكتب في الأندية ، بل لا يكاد يكتب إلا في الأندية . وعند ما يلقي محاضرة يختار مكاناً معدداً للمجتمعات العامة والسياسية بنوع خاص ، ومكاناً يسع جمهوراً كبيراً .

لا عجب إذن أن يكون موضوع حديث ومناقشة . فهو يعمل ما في وسعه على إبعاد الناس من حوله ، ويعمل ما في قدرته على جمع الناس من حوله ، ولكنه سواء جمع الناس حوله أو أبعدهم ، فهو بين همس الناس وضوضائهم ، يعمل ما في وسعه على أن يحقق شخصيته ، شخصية قوية فريدة .

لست أعرف شيئاً عن صباه وشبابه الأول . أعرف فقط أنه من أسرة وسطى أو من « البورجوازية » الفرنسية — وهو من أشد نقاد البورجوازية وأعدائها — كما أن زوجه سيمون دي بوثوار من أسرة عريقة في البورجوازية ، ولو أنها تكره البورجوازية وقيمها ، والأرستقراطية وتقاليدها .

لا أدرى سنه بالضبط ، ولكني لا أظنه يتجاوز الأربعين . وسارتر دميم الخلق ، قصير القامة ، بدين قوى ، يكاد رأسه يلتصق بكتفيه ، وشعره لالون له ، بين الأحمر القاتم والأخضر الرمادي . وهكذا قل عن لون بشرته ، غير متميز ، بين الأصفر والأزرق . وله عينان جاحظتان ، وفم غليظ الشفتين ، لا استقامة في خطه . وسارتر في ملبسه مهمل قدر ، وكان فيما مضى أشد قدارة في مظهره وأكثر إهمالاً للملبسه . ولذا لم تغرم به الفتيات ، بل كن ينفرن منه ويهجرن مجلسه . وكان هذا مريراً شديد المرارة على سارتر . ولا شك أن هذا يفسر إلى حد معين مكانة المسألة الجنسية من مؤلفاته .

في عام ١٩٢٤ نجح سارتر في مسابقة دخول مدرسة المعلمين العليا بباريس وهي من أصعب المسابقات . ولما تقدم لمسابقة الأجرىجاسيون أخفق ، فأعاد الكرة ونجح في سنة ١٩٢٩ أو في سنة ١٩٣١ ، أعني أنه يكون رسب ثلاث دفعات أو خمس دفعات . ولا شك في أنه ليس لهذا الإخفاق أدنى أهمية في تكوين فكر سارتر وتنمية شخصيته الثقافية ، ولكنه بدون شك ثبتت في ذهن سارتر فكرة أن الجامعيين عاجزون عن تقدير الموهبة الفلسفية الحقة ، وعاجزون عن الحكم على النبوغ الأدبي أو الفكري .

وعين سارتر أستاذا في مدرسة روان ثم نقل إلى الهافر . ويحكى أنه كان يجلس مع طلبته في قاعة الدرس ومعظمهم لم يتجاوز السابعة عشرة ، ويوزع عليهم الدخان والسجائر ويدخنون جميعاً وهو يلقي عليهم درساً فلسفياً . وأحد الطلبة سارتر وأقبلوا على درسه ، لا للتدخين فحسب بل للاستماع له ولل مناقشة معه . وكان ينتقل بهم من الدروس المرسومة بالبرنامج إلى موضوعات خارجة عنه من أحاديث أدبية وسياسية ، ومن هذه دون شك إلى أحاديث خاصة شخصية . وكان سارتر يحب طلبته ويخلص لهم ويرعاهم حين يذهبون إلى الجامعة ، فيعين بعضهم في اعداد شهاداته ويكتب لبعضهم الآخر بحوثه . أما هو فصمم ألا يكتب للدكتوراه ، وألا يعمل شيئاً للارتقاء إلى التدريس الجامعي ، بل عول على أن يبقى طول حياته أو طول مدة تدريسه على الأقل في المدارس الثانوية .

ولا شك أن حياته في الهافر منذ سنة ١٩٣٥ كانت قاسية عليه ، شديدة الوطأة ، وهي التي أملت عليه كتاب « الغثيان » . ويحوى هذا الكتاب فيما يحويه وصفاً رائعاً للهافر ، سادسة مدن فرنسا ، وصفاً لأهلها وعاداتهم وتقاليدهم . يصف سارتر فيه لون المنازل ولون الماء ولون السماء ، وتكثيف الناس بهذه الألوان ، وأثر هؤلاء في هذه المدينة ، سادسة مدن فرنسا وأبعثها للسامية بالضجر . وصف سارتر يدور على أشياء لا تحملها النفس ، وصف تضيق به النفس كما كان ، نفس سارتر تضيق بالأشياء وبالمدينة ، وصف يجعل شعورنا بالحياة مريراً ، كما كانت حياة سارتر بالهافر مريرة أشد المرارة .

شرح سارتر يكتب وهو في الهافر ، ولكنه لم يبدأ برواية « الغثيان » بل كان أول كتاب له في سنة ١٩٣٥ « الخيال » . والكتاب فلسفي في عنوانه وفي مضمونه ، يدرس طبيعة الخيال والصورة الخيالية ، ويعالج النظريات الفلسفية التي تناولت فعل الخيال والصورة الخيالية ، يفسرها ويفسر منزلتهما من حياة النفس ومن المعرفة . وإن ابتداء سارتر بالتأليف الفلسفي ليعنى شيئاً كثيراً ، يعني أننا يجب أن نعتبر سارتر في المبدأ فيلسوفاً ليس غير . ومضمون الكتاب وطريقة العرض فيه والمناقشة يدلان على أن سارتر فيلسوف من الطبقة الأولى ، له صبر حتى مع من لا يقر رأيهم من الفلاسفة ، وله قوة على النقد والهدم ، وله عمق في التحليل لم يبلغه أى فيلسوف معاصر .

ودراسة سارتر للخيال مناقشة أكثر منها عرضاً، وهي تحليلاً نقدياً أكثر منها وصفاً موضوعياً. و خلاصة الكتاب أن سارتر يرفض فيه جميع النظريات السابقة للخيال، وأنه يتجه في نهايته إلى موقف ظن أنه يحوى الحقيقة عن الخيال، فيفحص عن هذا الموقف فيجده غير مقنع. ويقف كتاب سارتر عند هذه الملاحظة، ويترك القارئ يبحث عن موقف نهائى دون أن يهتدى إليه.

لم هذه المناقشة؟ ولم عرض سارتر لهذه المشكلة؟ وما العلاقة بين هذه المناقشة الدقيقة وما سيصدر عن سارتر فيما بعد من المؤلفات الأدبية الرائعة؟ هل نجد هنا ما يعد مؤلفاته، ما يعد ثورته الفكرية؟ لا يمكن أن نحيب على هذه الأسئلة ما لم نعين بالضبط مضمون الكتاب، حتى ولو كان في هذا التعيين ما يبعدنا عن ميدان الأدب والفن وما يقيدنا بشروط فلسفية دقيقة.

لما درس الفلاسفة المحذون طبيعة الخيال، وجهوا نظرهم إلى الصورة الخيالية ولم يعنوا بفعل الخيال في ذاته. واعتقدوا أن الصورة الخيالية، صورة هذا المثلث أو تلك الدائرة مثلاً. الصورة التي لدى الآن عن شخص معين، لا تختلف عن الإحساس بهذا المثلث أو بهذه الدائرة أو بهذا الشخص. وكما أن الإحساس والادراك الحسى أبعد الأشياء عن العقل والادراك العقلى، فكذلك الصورة الخيالية. وكما أن الإحساس والادراك الحسى يعوقان النفس عن التفكير الصحيح، فكذلك تعوق صور الخيال أفعال التفكير. ونجد عند ديكارت نصوصاً يكاد يقرر فيها أن الخيال جسمى، وأن الصورة الخيالية تقوم في المخ أو في ركن من أركان المخ. ونجد عنده أن الإنسان إن تخيل فلائه يوجه انتباهه إلى جسمه، ولأنه متحد بجسمه. ثم نجد عند اسپينوزا أن الخيال يقابل تأثير جسمنا بالأجسام المجاورة ويجعل النفس لا تفكر في الأشياء إلا عن طريق هذا التأثير. والنفس وهي تحت سلطة الخيال لا تفكر في الأشياء كما هي في ذاتها، ولا في علاقاتها الموضوعية، بل تفكر فيها من جهة الجسم المتحد بها، ومن جهة علاقات الأجسام بهذا الجسم. وما دامت النفس تحت سلطة الخيال، فهي إذن عاجزة عن معرفة الأشياء في ذاتها وفي علاقاتها.

يسأل سارتر : كيف أن نفساً طبيعتها الفعل تحمل في ذاتها ما يناقض الفعل ؟ كيف يمكن أن تحمل النفس شيئاً مثل الصورة الخيالية التي هي جسم أو شبه جسم ؟ أو ليس هذا تناقضاً صريحاً ؟ واحد إذن من أمرين : إما أن ننكر وجود الخيال جملة ، وفي هذا الإنكار ما يخالف الواقع ، أو أن نقرر وجود الخيال بحيث لا يكون في تقريرنا هذا ما يعارض طبيعة النفس المفكرة الفعالة . ولكن كيف يصح هذا والصورة الخيالية تقوم في الذهن أو في المخ — إذا أردت — كما يقوم المثلث أمام عيني أو كما يظهر هذا الشخص الآن أمامي ؟

قد حاول برجسون في أواخر القرن الماضي أن يخفف من هذه الصعوبات عندما اعتبر الأجسام كلها صوراً أو مركبات صور ، وعند ما قرر أن المادة المطلقة ، تلك التي تعارض طبيعة الروح المطلقة ، لا وجود لها إلا في أذهان الفلاسفة ، وأن طبيعة الأشياء ليست روحاً بالمعنى الدقيق ، مثل روعي أنا أو مثل روح فلان ، وليست جسماً جامداً بلا حراك ، بل إنها بين الاثنين عبارة عن مجموعة صور، إن تركزت وانحدت فيما بينها اقتربت مما نسميه روحاً وفكراً ، وإن تشعبت وتبددت اقتربت مما نسميه مادة وجسماً . ومن ثم ليس هناك فارق جوهرى بين الصورة الخيالية والروح من ناحية ، وبين هذه الصورة والأجسام من ناحية أخرى . ثم ليس هناك إذن أى إشكال في قبول التصور الخيالي في النفس ما دامت النفس في أصلها جملة صور وكانت هذه الصور في أصلها شيئاً غير المادة البحتة . ولكن ثمة نتيجة أخرى أشد خطورة : ليس هناك اختلاف جوهرى بين الإدراك الحسى والتصور الخيالي إن كان الإدراك الحسى حضور صورة أو صور لمجموعة صور أخرى ، والتصور الخيالي مثول صورة أخرى لنفس هذه المجموعة من الصور . ويقوم الفرق الوحيد بينهما في أن حضور الصور للنفس في الإدراك الحسى له منزلة حيوية عملية ، ومتعلق أشد بالتعلق بمطالب النفس الآنية ، في حين لا يخضع حضور الصور للنفس في الخيال لمثل هذه الشروط ، سواء تركزت الصور وتركت فيما بينها على نحو جديد أو تحررت كلية من مطالب الحياة المشتركة الاجتماعية . ومن هنا كان الخيال ابتكاراً ، ومن هنا تكونت الأحلام .

يتعجب سارتر من موقف برجسون وما صادفه من النجاح عند الفلاسفة

وعلماء النفس . كيف يقنع الفيلسوف بموقف ينتهى به إلى إنكار ذات الحقيقة التى يعتمد عليها فى تقده وفى حكمه على الأشياء وتقديره لها ، أقصد حقيقة الفكر الخالص ، حقيقة الذهن الفعال ؟ إذ سواء قربت النفس من الجسم كما يفعل الماديون أو الجسم من النفس كما يفعل برجسون ، فأنت تهمل دون شك مزبة النفس على الجسم واستقلالها عنه . وسواء اعتبرت الصورة الخيالية نسخة من الإحساس يعوق الذهن فى تفكيره كما يفعل ديكرت أو رجعت هذا التفكير إلى جملة صور كما يفعل برجسون ، فأنت تعترف بأن الخيال لن يتميز عن الإحساس ولن يتعدى حدود الإحساس والإدراك الحسى .

ولكن ثمة نتيجة مهمة أخرى لموقف برجسون ، كانت متضمنة فى مواقف ديكرت وأسبينوزا : إن كان التقريب بين الإحساس والصورة الخيالية مشروعاً والتعادل بينهما جائزاً ، لم يعد هناك أى داع للتمييز بين الموضوعات الخارجية وصور الخيال ، أو — كما يقول ديكرت — بين اليقظة والأحلام ، بين إدراكى الآن فى الوقت الحاضر لهذه المائدة كما هى أمامى أو لهذا الرداء الذى ألبسه ، وبين صورتى المائدة والرداء فى ذهنى حين أكون نائماً أحلم .

ولكن ألسنا مخطئين حتى فى استعمال كلمة « صورة » ؟ ألسنا نعريض أنفسنا بهذا الاستعمال للوقوع فى الخلط بين إدراك الموضوع الخارجى وتصوره الخيالى ، للخلط بين الجسم المائل أمامنا ، وحضور هذا الجسم عندما نحلم به ؟ زد على ذلك أن من يتكلم عن « صورة » فهو يقصد « نسخة » من شىء خارجى ، ومن يتكلم عن الصور التى فى الذهن عن الموضوعات الخارجية ، فكأنه يحمل الذهن نسخاً للموضوعات الخارجية ، كما تحمل العدسة الفوتوغرافية صور الأشخاص والأجسام . ولكن إذا كان الفكر فكراً حقيقياً ، وإذا كان الشعور شعوراً حقيقياً ، فلا محل فهما لا للصور ولا للنسخ ، وإذا كان الفكر فعلاً ، فأحواله دائماً أفعال مهما اختلفت شروطها وموضوعاتها . لنترك إذن لفظة « الصورة » جانباً ولننتكلم فحسب عن الخيال وموضوعاته ، كما نتكلم عن الإدراك الحسى وموضوعاته .

ما الإدراك الحسى ؟ وما الخيال ؟ أقل ما يمكن أن يقال الآن ، هو أن الإدراك الحسى تمثل للأشياء فى حضورها الحى ، أو كما يقول هورسل « بلحمها وعظمها » . والخيال تمثل لنفس الأشياء ، ولكن فى غيابها بالذات . وإذا

لم يقم فارو بين الإدراك والخيال فهذا معناه أن لا فارق بين الأجسام الحاضرة والأجسام الغائبة، أى إلى حد ما بين وجود الأجسام وعدمها. ولكن الفلسفة تبدأ بتمييز أساسى بين اتجاهين للنفس، أحدهما يرمى إلى تقرير وجود الأجسام، إلى تقرير حضورها فعلياً لا مرء فيه، والآخر يرمى إلى التفكير فى الأجسام فى غيابها غياباً حقيقياً.

يلتقى سارتر فى هذه اللحظة مع المدرسة الألمانية المعاصرة التى يتزعمها هورسل، هذه المدرسة التى تطلق على نفسها اسماً غريباً هو « الفنونولوجيا ». والاسم يعنى حرفياً « دراسة الظواهر ». وإنما يقصده فى نظر هذه المدرسة، موقفاً يظهر الحقائق للعيان، فلسفة تصف الشعور وأفعاله وموضوعاته فى خصائصها الجوهرية.

اعترف سارتر بدينه للفلسفة الألمانية لما قامت به من التميزات الهامة، وخاصة عند ما وصفت فعل الإدراك الحسى فى اتجاهه نحو موضوعاته، عند ما وصفت الكيفية التى يتجه بها الإدراك نحو موضوعاته، والنحو الذى تمثل به هذه الموضوعات للذهن فى الإدراك. وعمل سارتر على فهم موقف هذه الفلسفة من الخيال وموضوعاته، ولكنه لم يجد مفرّاً من الاعتراف بأن هذه الفلسفة، وهورسل خاصة، قد عجزا عن حل مشكلة الخيال.

يريد سارتر أن يحدد طبيعة الخيال، والخيال غير منفصل فى الوجود عن موضوعاته. يجب عليه إذن أن يحدد أيضاً طبيعة هذه الموضوعات وكيفية مثولها للذهن فى الخيال: إذ لا يكفى إن نقول أن الخيال تصور لموضوعات غائبة الآن عنا، ولا يكفى أن نقول إن موضوع الخيال لا يمثل للذهن « بلحمه وعظمه » حسب تعبير هورسل، كما هو الحال للموضوع الحسى. بل إن مشكلة المشاكل هى هذه: كيف يتأتى لما كان موضوعاً حسيّاً، أى موضوعاً يمثل للإنسان « بلحمه وعظمه »، أن يمثل للإنسان وهو غائب عنه بالذات؟ وكيف يتأتى للإنسان أن يتصور هذه الموضوعات الحسية، وهى منعزلة عن شروط الموضوعات الحسية بالذات؟ وبتعبير آخر، كيف يصح لما كان موضوعاً حسيّاً أن يحضر للذهن دون أن يكون حاضراً للذهن؟ وكيف يصح لكائن مثل الإنسان يقوم بالإدراك الحسى أن يقوم بفعل يعارضه تمام المعارضة؟

هذا سؤال أو هذه أسئلة سارتر في الكتاب الذي أصدره سنة ١٩٣٥ .
والسؤال له خطره لأن الإجابة عنه ستحملنا دون شك على أن نقرر قيام فعل
للذهن متصل أشد الاتصال بالإدراك الحسي مع أنه متميز عنه كل التميز .
وستدعونا الإجابة عن هذا السؤال إلى أن نقرر موضوعات هي أقرب الأشياء
لموضوعات الحس والعالم الخارجي ، ولكنها مع ذلك أبعد الأشياء عنها ،
موضوعات موجودة لأنها حاضرة للذهن المفكر ، وغير موجودة الآن بالفعل .
والسؤال مهم لأن الإجابة عنه أو محاولة الإجابة تتصل عنه أشد الاتصال بمسألة الفن
وموضوعاته : فإن كانت قوة الفنان ، قصصياً كان أو مثالياً أو مصوراً ، تقوم
في خياله ، فالفنان يتصور إذن موضوعات غير موجودة ، أو هو يتصور عدماً ،
أو ما هو أسوأ من ذلك ، يعطى للعدم وجوداً . وسيؤدي بنا البحث في هذه
المسائل إلى الإجابة عن سؤال خطير : إذا كانت الموضوعات الخارجية وعلامتها
الوجود تمثّل للذهن أحياناً كأنها غير موجودة ، فهل يعني هذا أن الوجود
يتخلله العدم ، أو أن الوجود يحمل في ذاته ما يعدمه ؟

جبيل بلدى